النظرية البنائية لجان بياجي

رؤية مبسطة في المفاهيم الأساسية من خلال دراسة اكتساب اللغة

Jean Piaget's Constructivism Theory A Simplified View of the Main Concepts Through the Study of language Acquisition

د . علي منصوري

جامعة علي لونيسي – البليدة 2

Alimansouri478@yahoo.fr

تاريخ الإرسال:2020/12/26	تاريخ القبول:2020/01/23	تاريخ النشر: جانفي 2021

الملخص : تعتبر نظرية جان بياجي المعرفية البنائية إحدى أهم النظريات التي ظهرت في العلوم المعرفية في القرن العشرين ، و التي استفادت منها تطبيقات التعليميات المختلفة لا سيما في مجال تعليمية اللغات ، خصوصا و أن بياجي اتجه في مراحل متقدمة من تطوير نظريته إلى دراسة اكتساب اللغة عند الأطفال ، و لذلك فنحن نحاول من خلال المزاوجة بين الجهد الترجمي لبعض النصوص و بين دراسات سابقة عنه أن نضع هذا البحث الذي يبسط المفاهيم .

الكلمات المفتاحية : جان بياجي – النظرية البنائية – اكتساب اللغة

Abstract: Jean Piaget's cognitive constructivist theory is considered one of the most important theories that appeared in the cognitive sciences in the twentieth century, and from which the applications of various instructions have benefited, especially in the field of language education, especially since Piaget tended in advanced stages of developing his theory to the study of language acquisition in children. Therefore, by combining the translation effort of some

texts with previous studies on it, we are trying to place this research which simplifies concepts.

Key words: Jean Piaget - constructivism theory - language acquisition

مقدّمة:

إنّ جهود "جان بياجي"، والتي يظهر جزء كبير منها من خلال البحوث الميدانيّة التي قام بها في إطار علم النّفس المعرفي، و نلحظها كذلك من خلال التجارب الكبيرة التي أجراها طوال فترة دراسته للمعرفة البشرية ، خاصّة في مجال اكتساب المعرفة والعلم عند الطّفل عبر مراحل نشأته المختلفة، كانت من الطّبيعي أن تكوّن عنده رؤيةً خاصّة، ومفاهيم معيّنة حول انتقال الفرد من درجة الصّفر في المعرفة النّظريّة إلى مستويات شتّى ومقادير متباينة من درجات الإدراك والتحصيل،

فلقد حاول في العقد الثاني من هذا القرن أن يدرس لغة الأطفال على منوال آخر، فهو يرى أنّ اللّغة تؤدّي وظيفتين أساسيتين: إحداهما تنزع بالطّفل إلى المجتمع والأخرى تجعله يتركّز في كلامه على ذاته، ويتمّ النّمو اللغوي بانتقال من الاهتمامات الدّاخليّة المتمركزة حول الذّات، إلى الاهتمامات المتعلّقة بالمجتمع.

ففي المرحلة الأولى نجد الطّفل لا يعير المخاطب أيّ انتباه...فسيّان عنده استمع إليه النّاس أم لم يستمعوا، لأنّه حين يكون بمفرده إنّما يكلّم نفسه، وحينما يكون مع غيره إنّما يحاول أن يشرك الغير في اهتماماته الخاصّة، وأمّا في المرحلة الثّانيّة فيأخذ المخاطب بعين الاعتبار، ويفهّم أقواله ويحاول أن يتبادل معه الأخبار والآراء.[1]

إنّ الانتقال من التّفكير المنصرف إلى الذّات أو المتمركز حول الذّات إلى التّفكير المنصرف إلى المجتمع يحصل بالتدريج، بحيث أنّ الملاحظ يستطيع أن يميّز في كلام الطّفل محاولات تنمّ عن نزوعه إلى المجتمع.[2]

فأجوبة الطّفل لا تفتأ تصطبغ بالصّبغة الاجتماعيّة إذ نجده تارة ينقل إلى غيره خبرا وتارة أخرى يتحدّث عن غيره بالمدح أو الذمّ، وطوراً أخر يوجّه سؤالا...

وقد درس "بياجي" السّلوك اللّغوي ولطفلين من أطفال دار الصّغار (Maison des petits) يبلغان من العمر ستّ سنوات، فوجد أنّ كلامهما يدور حول الذّات بنسبة 37%، وأنّ 45% منه مصطبغ بالصبغة الاجتماعيّة بصورة عفويّة، وأنّ 17% منه عبارة عن أجوبة مفتعلة عن أسئلة، ويستنتج "بياجي" من دراسته أنّ الوظيفة المتمركزة حول الذّات هي التي ستسيطر على السّلوك اللّغوي ما بين ثلاث سنوات وخمس، ولا تغلب الوظيفة الاجتماعيّة عليها إلّا بعد سبع سنوات أو ثمان، ونستخلصُ من هذا كلّه أنّ كلام الرّاشدين تغلب عليه النزعة الاجتماعيّة، وأنّ غلبة السّمات الفرديّة الذّاتيّة في الكلام إن هو إلّا عرض من أعراض عدم النّضوج النّفسي.

ومن الجدير بالملاحظة أنّ دراسة "بياجي" هذه ما كادت تُنشر حتّى أثارت اهتماماً واسعًا في الكثير من البلدان، وخاصّة في الولايات المتّحدة وألمانيا واليابان، حيث أجريت مختلف التّجارب في هذا الميدان.

والنّتيجة التي أسفرت عنها مخالفة لما توصّل إليه "بياجي" فيما يتّصل بالنّسبة المئويّة للتّركّز حول الذّات، بحيث أنّها لا تزيد على 10%، أي أنّ بوادر النّزوع إلى المجتمع في السّلوك اللّغوي أعلى بكثير ممّا ظنّ "بياجي"، ولعلّ ذلك راجع إلى أنّ الدّراسة التي قام بها هذا الأخير لا تنطبق إلّا على أطفال تلك المؤسّسة التربويّة التي اشتهرت بتشجيع النزعات الفرديّة، وتعويد الأطفال على الاعتماد على النّفس والاستقلال في شؤونهم.

وقد ميّز "بياجي" في دراساته وأبحاثه حول النّمو الذّهني لدى الطّفل بين عدد كبير من المراحل مبيّنا أنّ كلّ مرحلة تعبّر عن حالة من التّوازن بين مختلف مظاهر وأشكال النموّ العقلي، فهي عنده تكون بمثابة محطّات في مسيرة الفرد نحو النّمو والاكتساب [3]، هذا ما يقرّر لدينا أنّ أعمال "جان بياجي" قد لقت صدى كبيراً في حياته قبل موته على الصّعيد العالمي الّذي تقبل منهجيّته الجيّدة في دراسة الفكر واللّغة عند الطّفل في إطار "علم النّفس المعرفي".

وفيما يلي نستعرض النّظريّة البنائيّة في المعرفة، وسنرى أنّها جمعت بين البعد العلمي والرّوح الثّوريّة النّاقدة لما سبق، والمبرهنة على ما في يدها، ولعلّ هذا هو قوام منهجيّة "بياجي" في البحث:

نظرية جان بياجي:

كانت هناك آراء وأفكار عرفها العالم عن الفرد ونموّه العقلي والنّفسي وعن لغته تفكيره...ويحلوا للبعض أن يُلخّص ما كان سائداً من قبل آراء "بياجي" في تشبيهين أو لنَقُل تعبيرين لهما وجاهتهما ودلالتهما فيما يتعلّق بالتّحصيل المعرفي:

أوّلا/ نظريّة آلة التّصوير (Camera):

وهي ترى أنّ العقل يعمل في المعرفة كآلة التّصوير، وتُسلّم في البدء أنّ هناك حقيقة خارج العقل منفصلةً عنه، وأنّ كاميرا العقل تلتقط صُوراً لهذه الحقيقة أو الواقع، وهذه الصّور تختزن كرصيد عقل الفرد، ثُمّ تتفاوت نوعيّة الكاميرات فمنها ما ينتج عقلا ذكيا ومنها ما يُنتج عقلا دون ذلك.

ثانيا/ نظريّة جهاز العرض (Projector):

وهي أقلّ شيوعا، وترى أنّ العقل يعمل كجهاز عرض الصّور وتنصّ هذه النّظريّة على أنّ الإنسان يأتي إلى العالم وعقله مزوّد بمكتبة تحوي العديد من الأفلام وهبتها له الطّبيعة، وليس هناك الآن جديدٌ في العالم، وإنّما استعادة لصور مخزونة في العقل تعرض على الفرد.[4]

ثُمّ يفاجئ جان بياجي القرن العشرون برأي يخالف النظريّتين الآليتين (آلة التّصوير/ وآلة العرض)، وهو الرأي الجديد القائل بأنّ المعرفة البشريّة هي عمليّة بنائيّة ابتكاريّة؛ وهذا يعني أنّ الأفراد يكوّنون الواقع بالنّسبة لهم من خلال خبراتهم مع البيئة بالضّبط كما رسم الفنان لوحة من انطباعاته...

ليست اللّوحة الفنّية مجرّد انعكاس لانطباعات الفنّان، كما أنّ صورة شخصٍ يرسمها فنّان (بورتريه) هي أكبر من مجرّد رسمٍ لقسمات الوجه. وعبقريّته تظهر في هذا المزيج الرّائع من خبرته السّابقة التي اصطبغت في حساسيّة فائقة بخياله المرهف [5] ، وهذا ما يحدث في عقل الفرد عندما يُكَوِّنُ ويبني واقعه، إذن فهمه ووعيه بما هو موجود في الواقع لا يطابق

مطلقا ما تستقبله حواسّه من انطباعات، فهذا الفهم يتأثّر بطريقة الفرد في تكوين المعرفة التي يستوعبها عقله ويحتفظ بها، حتّى تصبح من ممتلكات ذاكرته.

الفرد يعيد بناء الواقع الّذي جاءت به حواسّه من البيئة، يقول "جان بياجي": «نحن لا نعرف حقاً البيئة، ولكن نعرف ما صارت إليه في عقولنا...» الواقع هو دائما إعادة تكوين ما هو موجود في البيئة، وليس مطلقا مجرّد نسخة منها، والعبرة في كيفية بناء هذا الواقع الّذي تستقبله الحواس وإعادة بنائه؛ فعمليّة البناء عند الفرد قوّتها محدودة وتزداد بزيادة خبراته.[6]

هذه هي البنائيّة عند "جان بياجي"، أو (**Constructuviune**)، وبصورة أوضح يرى من خلالها أنّ الكائن البشري يرث برنامجاً فطرياً يقوم بالتّدرّج من خلال عمليّة النّضج بإعداد الأجهزة البيولوجيّة اللّازمة لتكوين بناء داخلي ثابت من خلال خبراته مع بيئته.

هذا البناء الثّابت والّذي هو قدرة عامّة أو عامل عام يبدو في سلوك الفرد على المستويات المجرّدة أو العمليّة الميكانيكيّة أو الاجتماعي، وتتحدّد غالبا باختبارات الذّكاء لذلك يشيع تعريف الذّكاء بأنّه ما تقيسه اختبارات الذّكاء، وهو يساعد الكائن البشري بعد ذلك في التّكيّف للتّغيّرات التي تحدث في بيئته من خلال عمليّتي التّمثّل والمواءمة.[7]

نعود لنلقي نظرة على كتاب (منابع الذّكاء عند الطّفل) حيث يصف "بياجي" العمليات العقليّة عند الأفراد كما نلاحظ من الخارج في سلوكهم الظّاهر.

وقدّم شرحا (جان بياجي) لبعض المفاهيم الأساسيّة في نظريّته عن الذّكاء، منها مفهوم **التّنظيم** (**Organisation**) و**التّكيّف** (**Adaptation**).

ويتضمّن التّنظيم عمليّات التّصنيف والتّرتيب للأشياء والعمليّات والأحداث في نظام مترابط ترابطا منطقيا في عقل الفرد.

ويتضمّن التكييف عمليتين أخريين وإن كانتا على طرفي نقيض إلّا أنّ بينهما صلة وثيقة: هما الملاءمة (**Accommodation**) والتّمثّل (**Assimilation**)، وتعني المواءمة تغيير سلوك الفرد ليتماشى مع البيئة، أو تعديل الأبنية العقليّة حتّى يمكن للمعلومات التي لا تتّسق مع

الأبنية أو التراكيب القائمة التكامل معها [8]، وهي العمليّة التي يغيّر فيها الفرد تغييرا ايجابيا لبنية المعرفة لديه حتّى يتناسب مع نظام البنية العميقة للمدرك الخارجي.

فمثلا عند الرّضيع نجد سلوك المواءمة واضحا فهو محتاج إلى الغذاء ولذلك يلائم فمه ليتناسب مع الصّدر الّذي يرضع منه رضاعة طبيعيّة أو صناعيّة.

ثُمّ التّمثّل بمعنى أنّ هذا الرّضيع عندما يمسّ بشفتيه أيّ شيء هفو يتصوّره مصدرا للغذاء الّذي اعتاده وهذا من صور التمثيل.[9]

وخلاصة التمثيل أنّها عمليّة يأخذ فيه الفرد الحوادث الخارجيّة والخبرة ويوحّدها مع أنظمته وأبنيته العقليّة القائمة بالفعل أو العمليّة التي بواسطتها تتوحّد عناصر البيئة مع البناء المعرفي للفرد، وهو يغيّر من الشيء الخارجي حتّى يتناسب معه.[10]

لهذا علّقت **"جان – ماري دولJean- Marie Dolle "** بقولها: «تعتبر الحياة إحداثا مستمرا للأشكال المعقّدة أكثر فأكثر، وجعل توازن تدريجي بين هذه الأشكال والمحيط».

إنّ هناك تكيّف عندما يُتحوّل وفقاً للمحيط، حيث يكون من آثار هذا التغيّر تزايدٌ في التبادلات بينه وبين المحيط، إذ تكون ملاءمة للحفاظ عليه.

فهذا المجموع المبنيّ (المقصود البناء) يكون وفق حالتين هما:

1. يتمّ دمج عناصر المحيط بواسطة المجموع المبني الّذي يحوّلها إلى ذاته.
2. يتحوّل المحيط ويتكيّف النظام مع هذا التّغيّر متحوّلا بذاته.

فمن جهة تُكوّن العلاقة الرّابطة بين العناصر المنظّمة أ، ب، ج، وعناصر المحيط ك، ع، ق، علاقة تمثّل، أي أنّ وظيفة الجسم لا تزيلها، ولكن تحافظ على دور النّظام وتنسّق معطيات المحيط على أن تدمجها في هذه الدّورة.

فمن جهة يعني التّمثّل اندماج عناصر المحيط في البيئة، ومن جهة أخرى تغيّر هذه البنية حسب تغيّرات المحيط [11]، وعمليّة التّكيّف بشقّيها – التمثيل والملاءمة – تفترض مقدّما وبصورة دائمة عمليّة تنظيم، فتمثّل الكائن العضوي لطعام وتلائم الكائن العضوي معه هي أنشطة منتظمة يقوم بها الكائن الحي وبشكل منتظم، ويتّضح هذا التنظيم في علاقة الأجهزة العضويّة المختلفة داخل الكائن العضوي.

وإذا انتقلنا إلى المجال العقلي أو مجال الذّكاء، فإنّنا نجد نفس العناصر الوظيفيّة الثابتة التي وضّحت لنا في مجال البيولوجيا، والتمثل العقلي لا يختلف كثيرا عن التمثّل البيولوجي، ففي كلتا الحالتين فإنّ الكائن الحيّ يتكيّف ويمكنه أن يعالج الموقف المعروض عليه، والتمثّل والملاءمة العقليان عمليتان مترابطتان: فعمليّة الإدماج العقلي لحقيقة ما تتضمّن دائما كلا من التمثّل والملاءمة.

إنّ مفهوم الصّور الذهنيّة أو المخطّطات العقليّة التي يستطيع الفرد بواسطتها أن يُفرّق بين المواقف المختلفة ويعمّم بها بين الخبرات والمواقف المتشابهة، وهو عندا يواجه موقفا يقارن بينه وبين مخططاته السّابقة.[12]

فخلاصة ما يمكن قوله مستفاداً من نظريّة "جان بياجي" المعرفيّة:

- أنّ المعرفة البشريّة هي عمليّة بنائيّة ابتكاريّة.
- الحواس عند الفرد تستقبل الواقع وتعيد بنائه.
- الفرد يتمثّل المعارف ويخزّنها على أنّها تجارب سابقة وثابتة.
- التّمثّل هو عمليّة توحيد عناصر البيئة مع البناء المعرفي للفرد.
- المواءمة هي تعديل الفرد لأبنيته العقليّة حتّى يمكن للمعلومات أو البنية العميقة للشيء الخارجي أن تتّسق وتتكامل معها، وهو تغيير إيجابي.
- عنما يواجه الفرد موقفا فإنّه يقارن بينه وبين مخطّطاته الذّهنية السّابقة ويتّخذ ما يلزم من تواءم للموقف أو تمثّل له حتّى يستطيع أن يتصرّف إزاءه.[13]

ولهذا يكون ناتج العمليّة إمّا تكيّف للمعارف الجديدة الآتية من الخارج واستقبالها، وتتركّز في مستودع المعارف لدى الفرد، وإمّا أن يرفض هذه المعلومات والمعارف كونها لا تتناسب مع الخبرات السّابقة التي تمثّلها من قبل ، و هو خلاصة مفاهيم "جان بياجي" الّذي فقدته الأوساط العلميّة سنة (1980م).[14]

الهوامش:

[1] ينظر: علم النّفس اللّغوي، حنفي بن عيسى (ص: 163/162/161) الفصل الثّاني كيف يتعلم الطّفل اللّغة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

[2] ملاحظات جان بياجي دائما.

[3] المختصر في عوامل اكتساب اللّغة، للدكتور عبد الرحمن الوافي، (ص:34)، دار نجوم العلم للنّشر والتّوزيع، الجزائر، (ديسمبر1998م).

[4] تربية الطّفل قبل المدرسة لسعد مرسي أحمد وكوثر حسين كوجك، (ص: 382-383)، الطبعة الثانية، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1987م.

[5] تربية الطّفل قبل المدرسة لسعد مرسي أحمد وكوثر حسين كوجك، (ص: 384).

[6] نفسه

[7] النمو المعرفي بين النّظريّة والتّطبيق للدكتور عادل عبد الله محمد، (ينظر ملحق المصطلحات الشائعة في علم النّفس المعرفي).

[8] نفسه

[9] تربية الطّفل قبل المدرسة لسعد مرسي أحمد وكوثر حسين كوجك، (ص: 394-395).

[10] النمو المعرفي بين النّظريّة والتّطبيق للدكتور عادل عبد الله محمد، (ينظر ملحق المصطلحات الشائعة في علم النّفس المعرفي).

[11] ينظر كتاب: (pour comprendre Jean Piajet) par: Jean Marie dolle ، (ص:51).

[12] تربية الطّفل قبل المدرسة لسعد مرسي أحمد وكوثر حسين كوجك، (ص: 394-395).

[13] نفسه، (ص: 395)

[14] تربية الطفل ما قبل المدرسة، (ص: 410).

*** *** ***